أهمية الحوار الثقافي والتواصل بين مشرق العالم العربي ومغربه

بقلم الدكتور / أحمد درويش
أستاذ النقد الادبى والأدب المقارن بجامعة القاهرة

تكاد تشكل اللغة العربية ظاهرة فريدة في تاريخ لغات الحضارات الكبرى التاريخية على مستوى طريقة تشكيلها وتكوينها وسرعة انتشارها وتعدد العناصر الحضارية واللغوية التي تمثلتها واستوعبتها وتفاعلت معها وهي تكون ذلك التشكيل الثقافي والحضاري ثم على مستوى امتداد عمرها الزمني الذي يتواصل رأسيا بطريقة لم تتكرر من قبل ولا من بعد في اللغات الحية الأخرى ،إذ يقف وراء عربية اليوم المنتشرة في مشرق العالم العربي ومغربه ، تاريخ طويلا متواصل يمتد نحو ستة عشر قرناً فيما هو معروف لنا من آثار محفوظة ومتداولة ولا شك انه يمتد وراء ذلك، مسافات زمنية أخرى ربما يتاح الكشف عن أسرارها يوما .

ولا شك أن العامل الديني المتمثل في الإسلام ونصوصه المقدسة في القران الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة كان له أثر بالغ في ذلك الامتداد الرأسي والافقى الفريد للغة العربية لكن هناك عوامل تاريخية ولغوية أخرى قد تكون وراء سر استقرار العربية في البقاع التي تستقر بها اليوم والتي تمتد على مساحة ما يعرف بدول العالم العربي في قارتي أسيا وأفريقيا مع أنها انحسرت عن كثير جدا من بقاع العالم الاسلامى في هاتين القارتين بعد أن استقرت بها فترات زمنية تحسب بالقرون وقبل إن تنطلق إشارات الغربة التي أحاطت بها في مناطق واسعة من الإمبراطورية الإسلامية وهو ما عبر عنه الشاعر المتنبي في القرن الرابع الهجري وهو يتحدث عن بلاد فارس قائلا :

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وكانت إشارات الاغتراب تلك هي بدايات الانحسار الكامل أو شبه الكامل للعربية من مناطق الفرس وشبة الجزيرة الهندية وما وراءها من السهول الواسعة المتوغلة في بلاد الصين قبل أن تشهد بعد دورة زمنية أخرى انحسارها من القارة الأوروبية الغربية بعد زوال دولة الأندلس ومن بعض مناطق أوروبا الشرقية بعد تقهقر الأتراك العثمانية يبغى .

لكن بقاء العربية في المناطق التي تشكل العالم العربي اليوم قد يكون له من الدلالات التاريخية واللغوية ما يحمل الإشارة إلى وجود صلاة قوية قبل الإسلام بين سكان شبه الجزيرة العربية وسكان تلك المناطق المجاورة وان تكون العربية في مراحلها القديمة ذات صلة قوية باللغات التي كانت سائدة في تلك البلاد وهناك بعض الكتابات المعاصرة التي تلقى الضوء على العلاقات القوية بين لغة العرب وحزمة اللغات الأفريقية والاسيوية في الشرق والغرب أو الشمال ومن بينها لغات الفراعنة

في مصر ويلد على الذهن من هذه الكتابات أبحاث العالم الليبي د / على فهمي خشيم .
وآيا ما كان الأمر فقد سادت العربية هذه البقاع وجذبت إليها أهلها من الناحية الإدارية منذ قانون تعريب الدواوين الذي صدر في عهد الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان ومن الناحية الثقافية منذ استقرار الفتوحات الكبرى للعراق والشام ومصر وشمال وشرق أفريقيا ثم عبور هذه الفتوحات عدوة الأندلس إلى القارة الأوروبية .
ومع سيادة اللغة الواحدة في كل هذه المناطق أصبح من السهل أن يتنقل العلماء والأدباء والمعلمون والفنانون والرحالة بين المشرق والمغرب وهم يحملون خلاصة فنونهم وآدابهم وعلومهم ليثرى كل جانب ما لدى الآخر وليرتوي مما لديه كذلك وأصبح من المألوف أن ينتقل علماء من أمثال أبى على القالي من أقصى بلاد المشرق في خراسان إلى أقصى بلاد المغرب في الأندلس حاملا في عقله وقلبه روايات أستاذ بن درين الذي كان قدم بدوره من أقصى الجنوب الشرقي في عمان دون أن يجد اى من هذه الأطراف صعوبة في التنقل ولا غرابة في التلقي أو يحتاج إلى واسطة أو ترجمان .
وعلى نفس المنوال يستطيع واحد مثل زرياب الموسيقى الأسمر أن يرحل من بغداد إلى الأندلس فيستقبل استقبال الفاتحين ويبث ما لديه من الفنون والآداب والعادات في مجال الظرف والتأنق في الحديث والملبس .
وفى اتجاه المقابل يستطيع علماء وأدباء ومفكرون ورحالة من أمثال بن خلدون وبن جبير وابن عبد ربه وابن عربي وابن بطوطة وابن رشد وابن حزم وبن زيدون وابن خفاجة وغيرهم أن يقدموا نصيبا وافرا في طرائق التفكير ووسائل التعبير وتشكيل الثقافة المشتركة التي يعتز بالانتماء إليها المشارقة والمغاربة على سواء .
ولم تكن مقوله أديب مشرقي مثل الصاحب بن عباد تعليقا على كتاب مغربي في الأدب مثل العقد الفريد لابن عبد ربه عندما علق عليه قائلا (هذه بضاعتنا ردت إلينا) لم تكن هذه المقولة في ذاتها ألا تعبيرا عن التطلع الدائم من كل فريق إلى تشرب إبداع الفريق المكمل لها وعن توقع لا يتوقف لإضافات محتملة يتشكل منها كل ثقافي الذي تشهد أثاره الباقية والممتدة على تكامله وحيوية نصيب كل من الطرفين بل وتداخل هذه الأنصبة تداخلا يصعب معه الفصل بين جزئياتها التي تلتحم كأعضاء الجسد الواحد لا يمكن الا لدعاء بان اخدها يسد مسد الآخرين أو يغنى عنه كما كان يقول بن الرومي في مرثيته الشهيرة (لكل مكان لا يسد اختلاله مكان أخيه) .
غير أن العصر الحديث بدأ يشهد مزيداً من الروافد التي تصب في فروع العربية المشرقية أو العربية المغربية أن صح هذا التعبير ومع أن هذه الروافد قد تمتزج في المجرى الرئيسي في معظم الأحايين فسيتفيد منها الشاربون والواردون في المشرق والمغرب على سواء فان بعض القنوات الجانبية قد يتراكم فيها من الخواص والمذا قات ما قد يبدو معه أن ماءها قد يختلف عن مياه القنوات الأخرى أو أنها بإضافاتها بمجموعة مجاورة من القنوات قد تشكل نهراً جديداً مستقلاً أو مختلفاً .
ويلعب غياب الدور التخطيطي والتنسيقى بين رواسف الأنهار وقنواتها دوراً هامة في ازدياد عوامل العزلة والرقود ومن الضرروري أن نتنبه إلى احتمال أن

يحدث لقنواتنا ما حدث لقنوات لغات أخرى في مثل هذه الظروف التاريخية واشهر مثال يرد على الذهن وما حدث بلهجات اللغة اللاتينية في العصور الوسطي حيث تباعدت فروع اللغة الواحدة فأصبحت بمرور الزمن لغات متعددة بعد أن كانت لهجات متكاملة وأصبح لدينا اللغة الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية والرومانية وهى تشكل الآن لغات مستقلة ومختلفة وقوميات متعددة بعد أن كانت فروعا من لغة واحدة هي اللاتينية .

أن العربية المعاصرة مهددة بأن تسلك نفس الطرق وتتحول إلى لغات عدة يكون فيها للمشارقة لغاتهم وللمغاربة لغاتهم إذا لم تجد من وسائل التخطيط والتنسيق العلمي والمتابعة ما يحول دون ذلك .

والذي ينظر إلى واقع التعليم والإعلام والتأليف وهى روافد وحدة اللغة العربية غيرها من اللغات ، الذي ينظر إلى هذا الواقع لدينا يجده خاليا من أدنى درجات التنسيق بين أطراف الوطن اللغوي الواحد لكنه يجده في الوقت ذاته مدخلاً مناسباً لتلافي المخاطر التي اشرنا إليها وإعطاء مزيد من التماسك لواقع لغوى وقومي ومهددً بالتصدع والانهيار .

فعلى مستوى التعليم مثلاُ ينبغي السعي إلى أن يكون لدينا الحد الأدنى من الكتب المدرسية الموحدة في المشرق والمغرب ومن الغريب ألا يتفق وزراء التعليم العرب والمشرفون على مناهج التلاميذ والطلاب على كتاب واحد يطرح في وقتً واحد على المدارس في الخليج والشام والعراق ومصر والسودان وشمال أفريقيا وغيرها من مدارس العرب وهل يعقل مهما كانت اختلافاتهم السياسية إلا ينجحوا في الاتفاق على كتابً واحد ؟ وليكن حتى في تعليم اللغة العربية ذاتها يطرح على كل هؤلاء التلاميذ ليشكل الخيط الأول الذي يتمسكون به في تحقيق التكامل اللغوي بينهم .

وهل من الصعب أو المستحيل أن يتم التوسع في هذا النهج شيئاً فشيئاً انطلاقا من العلوم الإنسانية إلى العلوم الطبيعية والتجريبية ؟ ويمكن الاستفادة خلال ذلك بالتأكيد من تعدد الروافد الثقافية في أرجاء الوطن العربي استفادةً تنسيقية يمتزج خلالها هذا القدر الوفير من روافد المعرفة وطرائق التعبير عنها في مجرى ثقافي واحد .

أن وسائل الإعلام بدورها ينبغي أن يكون لديها من التخطيط والتنسيق ما يفسح لها دوراً في مجال التكامل الثقافي واللغوي ويبعد عنها تهمة العمل على التشتيت والتفريق ويمكن لهذا التخطيط أن يفسح مجالا مناسباً للخصائص المحلية واللهجية لكل إقليم في المشرق أو المغرب لكنه يحرص في الوقت ذاته على إفساح المجال الرئيسي أمام الثقافة المشتركة تبث بها المادة الإعلامية طرحا أو حواراً حول المسائل المقروءة أو المسموعة أو المرئية .

بل أن الإنسان قد يتساءل في عصر الفضائيات عن إمكانية وجود جاني من البرامج المشتركة التي تبث في وقت واحدً بهذه اللغة المشتركة ويتعاون في إعدادها وإخراجها متخصصون من المشارقة والمغاربة ويتلقاها ذلك جمهور مشترك من أبناء هذه اللغة فتزداد أواصر الترابط اللغوي والثقافي من خلال مساحة اللقاء

المشترك دون حرمان للمتلقي من مذاق العطاء المحلى .

إن لغة التأليف في الأبحاث والكتب والمقالات بل وفى الأعمال الإبداعية تحتاج إلى مزيد من تنسيق الجهود بين مجامع اللغة المتناثرة في أرجاء الوطن العربي ومراكز الترجمة والتعريب المتعددة والمجلات المتخصصة التي تكاد تنحو كل واحدة منها منحاً خاصاً بها ومنحت لها مصطلحات قد لا تكون شائعة أو معروفة لدى المجلات المناظرة في مجال التخصص ذاته في بقية أرجاء الوطن العربي وينتج عن ذلك كثير من البلبلة والغموض والتشويش وصعوبة نقل المعرفة وزيادة مساحات التباعد بين أبناء اللغة الواحدة .

ولم يعد التخطيط والتنسيق في مثل هذه المجالات محالاً أو صعباً أمام التقدم المذهل لوسائل الاتصال والمعرفة في العصر الحديث وأمام النمو المطرد لفنون الإدارة والتخطيط ولكن الذي يشكل الخطوة الأولى في هذا الطريق هو الإرادة والقرار العلمي والدعم السياسي والاقتصادي وفى غياب هذه الإرادة وذلك الدعم قد نجد واقعنا اللغوي والثقافي قريباً من واقع اللهجات اللاتينية التي تحولت إلى لغات وقد تصير اللغة العربية إذا حدث ذلك لا قدر الله واحدة من لغات الماضي التراثية الميتة لا من لغات الواقع المتجدد الحي .